النتاج الجديد

(المضمون في (الشجرة المقدسة)

بقلم: صدوق نور الدين

إن أي عمل أدبي لا يكتسب حجمه الحقيقي إلا بعد موضعته في إطار البنية الاجتماعية والواقع التاريخي المتواجد، كما يرى لوكاتش ولوسيان جولدمان. بيد أن تحديد الأثر الأدبي في هذه الدائرة يكشف في العمق موضوعية الطرح، ودرجة وعي المبدع بما يتفاعل أمامه من واقع متناقض في الأساس. من ثم يتحدد مستوى الرؤية الواقعية للأشياء المتنامية حوله.

و(الشجرة المقدسة) كنتاج قصصي لا يمكن تشريحها إلا بعد وضعها في الإطار الاجتماعي والتاريخي على السواء، من أجل تحديد المضمون الكامن في أحشاء النص. ذلك أن زفزاف في مجاميعه القصصية خاصة (الأقوى) و(الشجرة المقدسة)، يكاد يحدد وحدة متماسكة تستهدف تشييد المضمون الأوحد والكياني. بيد أنه في (الأقوى) يجسد موقفين ليس إلا، موقف من السلطة وآخر من التاريخ. وفي (الشجرة المقدسة) الملاحظ أن زفزاف يقيم ثورة عنيفة على المعتقدات والأوهام والخرافات المتجسدة في الأرضية المجتمعية، أما (بيوت واطئة) فتبقى في الأصل ثلة من المضامين المتنوعة التي تستهدف إدانة القمع والكشف عن معاناة الطبقة العاملة، مع طرح موقف من المرأة في اطار دمجها داخل البنية السياسية حتى تعبر عن رأيها بموضوعية.

والأكيد أن زفزاف قد يكون سواء في (الأقوى) أو (الشجرة المقدسة) قد اختار التعبير عن ظاهرة واحدة في قصص متعددة وبفنية متنوعة على السواء، عن وعي صريح بما يختمر بالواقع المعاشي، إلى جانب البعد التاريخي الذي كتبت فيه هذه النماذج القصصية، والظاهر أنها كتبت متقاربة تتشابه مضامينها.

(فالشجرة المقدسة) جاءت لتؤكد على جانب له بليغ الأثر في واقع التخلف الذي يتكيف في أجوائه المجتمع المغربي، ذلك أن التواجد في ظل مجموعة من المعتقدات والخرافات يساهم في إذكاء جذوة الوعي المضاد، في غيبة سياق وعي موجب هادف. من ثم تأتي إشكالية الحوار فيما بين المثقف والبنى الاجتماعية. فالمجتمع المغربي كنموذج للمجتمعات المتخلفة التي لم تعرف بعد الطريق الصحيح، يعيش الانفتاح على الحضارة الأوروبية مع التمسك بالمبادىء الاسلامية، وفي ظل هذه الازدواجية يكمن التردي، ذلك أن طرح وعي إيجابي يخدم الفئات المجتمعية وأغلبها شباب كادحون وبطالة وفلاحون على السواء، هذه الفئات التي تمتاح ممكناتها الذهنية من عقليات قديمة إما عن طريق الوراثة، أو التمسك الصريح بعادات وتقاليد محجفة لا معيار موضوعياً تستهدفه، في حين أنها تتعامل مع الوعي الايجابي على أنه الوعي المضاد، الذي يجسد اندحارها المستقبلي ويهدد وضعها الاقتصادي، لا يمكنها على الأصح التمسك به، لتبقى طارحة مفاهيمها التقليدية لكل ما من شأنه أن يعرقل عملية دخولها في بؤرة الوعي الايجابي.

(- مالنا ومال الشجرة؟ هذه حكومة تريد أن ينزل بها بلاء سيدي داوود. والله لن يستطيع أحد منهم أن يغمض عينيه الليلة حتى تحصل له مصيبة).

(- ألا تخافين من لعنة سيدي داوود؟ اغلقي فمك وإلاّ وقف عليك هذه الليلة في المنام).

(فمشت فيطونة بسرعة راكضة نحو كوخها. وعادت ببصلة واناء من الماء. ووضعن لها البصل على أنفها ورششنها بالماء. بينما تكوم الرجل على نفسه في زاوية معينة وقد جمد القرد في مكانه لا يبدي حركة). ثم إن الوعي المضاد الذي تبقي عليه هذه الفئات المجتمعية، يخدم في حقيقته الطبقات البورجوازية التي تزيد ناره فتيلاً، من أجل كسب الضمير الكادح الذي يعتقد بكون سقوطه في أحضان البورجوازية هو خلاصه من فقره وكدحه ويسر حالهُ، من ثم تتعمق هوة الفصل فيما بين طبقتين متباعدتين، طبقة كادحة وأخرى بورجوازية، وفي عمق الطبقة الأخيرة يحدث التطاحن والتصدع، إذ (لقد خلقت البورجوازية مجتمع ذئاب، تكمن مصلحة الواحد في خراب الآخر (التنافس والمضاربة). كما يرى بو علي ياسين. على أن الضحية الأكبر تظل الطبقة الكادحة التي تسقط في الأيدي البورجوازية، التي تركز تواجدها على التنظيم القائم والسائد في شكل دولة، وأقصد بالأساس الأنظمة الليبرالية وتوابعها، من الأنظمة المتخلفة.

(- إنها حياة الكلاب).

(سوف أدفع لعمران سواراً فضياً لكي أطعم أولادي. منذ شهور لم يأكلوا لحماً).

(- إنني لم أنم في حياتي قط بما فيه الكفاية، دعيني أسترح قليلاً، لقد ظللت طول عمري أشتغل لهذه الدولة التي لم تقدم لنا أي شيء).

على أن مثل هذه الطبقات الكادحة لو أخذناها من موقعها التاريخي، لوجدنا أن المغرب كدولة فرضت فرنسا عليها حمايتها في ١٩١٢، لم يستطع الحصول على استقلاله إلا بفضل نضالية هذه الطبقة وبسالتها على السواء، مع ضرورة الإشارة إلى كونها بعد الاستقلال ظلت في موقعها لما سيطرت الطبقة البورجوازية على زمام الأمور. هذه الأخيرة التي تحالفت مع الاستعمار، كما يؤكد ذلك أيضاً مبارك الدربي في مجموعته القصصية (عيون تحت الليل).

(طوق الرجال القذرون الحفاة. ووجهت إليهم أفواه البنادق. ورفعت العصي تنزل على الرؤوس والأكتاف. الضابط الفرنسي يتأمل الأسلحة ويصرخ. يضرب فخذيه مثل امرأة في مأتم. يلوح بيديه في الفضاء فترتفع العصي وتهوي على الأجسام).

(كل الناس يتحدثون عن البئر المليئة بالأفاعي. التي يعاقب فيها عبيقة أعداءه. كل الناس من سوق السبت إلى ثلاثاء الأولاد. إلى الجرف الأصفر. أكثر من هذا كان لأبيه ساحة واسعة للجلد. كل مساء يُجلد فلاح أو زوجته أو ابنه. كان الحاكم العسكري والحاكم المدني الفرنسيان، يحلو لهما أحياناً أن يقوما بجولة حول تلك الساحة ليتفرجا على عملية الجلد تلك. يضحكان كثيراً بدون أسف. ثم يدعوهما إلى العشاء: الخراف مشوية، والشيخات والكسكس وعندما ينتهي العشاء تبدأ حفلة أخرى خاصة. تطورت آلات تلك الحفلات الخاصة. عوض أن يحضرها فرنسيون. أصبح يحضرها القايد والقايد الممتاز والعامل ووكيل النيابة).

(انطلقت رصاصة من مكان معين، ذهب الضابط وتوقف عن الحركة. انطلقت رصاصة فاصابته في ذراعه. احتمى بالجيب وهو ينزف دماً).

إن مستوى المضمون في (الشجرة المقدسة) يتحدد من خلال عملية الإدراك، إدراك المادة المرغوب سياقها، إلى جانب الكيفية التي عن طريقها يتم الإيصال، والتي لا مجال لمناقشتها ما دام التركيز منذ البداية موجهاً للمضمون وليس الشكل، في غيبة أية مفاضلة بينهما معاً، باعتبار العلاقة الجدلية الحاصلة. فزفزاف من خلال الإدراك يقدم مضمونه ليس منتقداً أو بروح انتقامية، وإنما نجده يقدم مضمونه سالماً من تدخله كمبدع لذلك العمل، نحو إعطاء سمة الحركة للأبطال المتفاعلين في الرقعة القصصية، إذ أننا نحس من خلال الطرح بكون المضمون المتواجد في إطار البنية الجمالية يقصد إلى التفكيه وليس النقد (مثال قصة القرد والبندير)، بينما الواقع الحقيقي والمرغوب هو واقع الانتقاد والانتقام لواقع شرس.

من ثم تبقى العملية الابداعية تختار لباس الاختفاء ما دامت حقيقة مرة، والحقيقة كما يرى غرامشي تبقى ثورية في الأساس.

هامش:

- (الشجرة المقدسه) مجموعة قصصيه لمحمد زفزاف، صدرت عن (دار الآداب) بيروت.
- (الثالوث المحرم) كتاب لبوعلي ياسين.